الإبداع



حلم .. اللحظات الأخيرة

قصّة

محسن يوسف *

قلت للمرأة التي أحب:

- تستطيعين منذ اللحظة، فعل ما تشائين.. افرحي وابتهجي والبسي ما تحبين من ألوان.

اضحكي بصوت عالٍ. اسهري حتى الصباح افعلي ما يروق لك، ولا تخشي أحداً..

تلفتت حولها دون أن تأتي بحركة، ثم همست:

- والرجال.؟

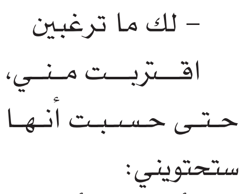
تلفت حولي مستطلعاً، فلم أجد رجلاً واحداً:

---

* قاص من سورية.

العمل الفني: الفنان عبد السلام عبد الله.

- لك ما ترغبين



اقتربت مني، حتى حسبت أنها ستحتويني:

وأنت.. ألست رجلاً؟

الحلم....

بدوت كتمثال، لا ملامح تعرّف به وتميّزه. افتقدت حاسة التمييز. إلى يميني، رأيت حوض نهر النيل، يغصّ بجماجم الفراعنة وعظامهم، وقوافل من الحيوانات تغوص في طينه، وإلى يساري، توهمت أن بحيرة لوط تبكي كامرأة هجرها بعلها، أما الرافدان خلفي، فكانا مغمورين بالرؤوس المقطوعة.

عدت إلى المرأة، ويداها تتحسسان جسدي:

- لم تجبني. ألست رجلاً؟

انفجر صوتي، وتردد صداه، بين بحر الظلمات وسور الصين:

- ألا ترين ... أيتها الـ...؟



تعرت تحت الشمس، وهي تشير إلى مواضع الإغراء في جسدها:

- .... أن الوجود يبدأ من هنا.

تابع الحلم

استيقظت من النوم، غسلت وجهي، وبسملت ورتلت وهللت، وابتهلت إلى السماء الأولى والثانية والسابعة، ورحّبت بربّة

اخناتون المطلة من الشرق، ثم خرجت إلى... البرية.

سمعــت صراخاً وعويــلاً، وتعثّرت بوجوه وأيدٍ وأرجلٍ وقلوبٍ مدماةٍ.

واجهتنــي جثــة مشوهــة، واعترضــت طريقي:

- خفف الوطء أيها العابر.. فحرب قادش لم تنته بعد..

قادش؟.. يا إلهي. الحثيون وفراعنة النيل، وشذاذ الآفــاق واللصوص، وجــلاوزة بابل، أكانت تلك حرباً عالمية، وما هو ترتيبها؟..

صوت صــارخ، اصطدم برأسي، لم أعرف مصدره أو صاحبه:

- انظــروا.. انظــروا. هنــاك من لم يزل واقفاً..

تفقّــدت جمجمتي. يديّ. رجلــيّ. بقية أعضائي. قلت لنفسي:

- لعلهــم ضحايا حرب عالميــة أخرى.. أتذكّــر أن حروبــاً كثــيرةً عبرت بــي، فمتى ستنشب الحرب الأخيرة؟..

أحاطــت بمــكاني الجثــث، وتداخلــت الصرخات:

- دعنــا أيها اللاهــي. ارم فأسك بعيداً ولا تنبشــ قبورنــا وتستبــح رفاتنــا، فنحن أجنة أزمنتنــا، وأبناء أمهاتنا ومزاراتنا. انس هولاكــو وتيمور لنك وجنكيــز خان. الميكادو وموسوليني وهتلر وستالين وتشرشل وموشي ديان ورعاة البقر الأشرار، وأنغال المستعربين. فكّــر في الآتــي من الأيــام، وتأمل ما حولك جيــداً، عرائس طيبة وصبايــا يبوس، وبنات أوروك وبعلبــك وأوغاريت معرضاتٍ للسبي، فقراصنــة زمانكم، أقسى وأقــوى وأذكى، أم لعلــك تتناسى، وربما تتجاهل أنك مع سواك من الرجال، أضعف من أن تلبّوا رغبات امرأة عاشقة؟..

تكدست بقايا المخلوقات، منذ آدم وحواء، حتــى الشهــر الخامســ من عــام ٢٠٠٥م، فاختفت الشمس والسماء والجبال والسهول والبحار، ووجدتنــي أسقط فوق جبلٍ عالٍ.. عالٍ، وتحتي فراغ سديمي لا قرار له..

كنــت كمن فقد وعيــه واتزانــه، وأنا لا أتنــاول المسكرات، ولا أفرّق بين مخدرٍ وآخر، ولم أعاقر أي مادةً من قبل.

الجبل يرتفــع في الفضاء، ويهوي باتجاه الفــراغ.. تنفتح الهوة فأشعــر أني مجرد ذرة متناهيــة في الصغر. ينفصــل البروتون عن النيوترون، ويغــادر الإلكترون مداره، فأهوي وأهوي، ثم يتلاشى كل شيء..

استمرار الحلم

أشم رائحة كريهة، وأدرك أني أعبر تخوم مدينــة (ني نــوى.. أور.. سمرقند.. كييف.. قرطــاج.. برلــين.. واشنطــن.. نيويورك.. هيروشيمــا.. جنــين.. بغــداد.. مــأرب.. عمورية.. سبأ.. حاتوشا.. أرم ذات العماد.. و..) أتجمّد.. مشدوهــاً مستباح الحدقتين، فاغر الشدقين، مسحور العينين، على أفاريز

الشرفــات، ألمح وجوهاً كئيبة. عيوناً مفقودةً، أفواهاً مغلقة، أثــداء متدلية، سيقاناً مدلاة. أطفــالاً معلقين علــى مناشر الثيــاب. نساء عاريات، ورجالاً لا وجوه لهم،

أصرخ ملتاعاً: ما هذا؟..

تمتد نحوي مئات الأيدي، وتأخذ بجسدي اللكمات والرفســات والمشارط. يغطي دمي الأرض، وعلــى مسافــة تظهر المــرأة التي أحب. يداها تهشان أسراب الذباب والغربان. ووجههــا ساحة معركــة، ونظراتهــا سيوف تخترق الصــدور الحاقدة والقلــوب السود. يحتويني جسدها الدافئ، ويحنو عليّ ثدياها وصدرهـــا، وأهدأ كطفل بــين ذراعيها، وأنا أهمس: آه يا أمي.. ما أقبح هذا العالم..

أرأيت ما رأيت..؟..

تتلمس وجهــي بإحدى يديها، وبالأخرى تشير إلى ما تحت نهديها بأنفة وكبرياء:

- أنسيت أنك وضعــت هنا سرك الباقي على الزمن، من بعد كل ماترى، ويحدث..؟..

أتأمل وجهها، فــأرى العالم يبتسم. أهتف ضارعاً:

- اغفــري لجنينك. وافعلــي ما تشائين. ولن أكــون الرجل الذي تعشقين، إن لم تسطع الأنوار، من كل ذرة فيك..

دخلــت في جســد المــرأة، ولم أخرج، ولن أفكر في الخروج، فكل شيءٍ، يبدأ وينتهي مع هذا الجسد الحنون.

☆ ☆ ☆